قصة قصيرة

في الجانب الآخر من الفجر

غوهر أحمد كمار*

استيقظ يوما بُعيد الفجر، على ذلك الشعور العجيب المرعب الذي اعتاد زيارته، يحثه على النهوض سريعًا ليدخل صفوف السباق إلى اللقمة والعزة. كان متلحّفًا، فشعر بالحرارة، فأخرج بعض جسمه من اللحاف، غير أنه شعر بالبرد في بعضه المنكشف، فأعاده في اللحاف حتى اضطر إلى إغلاق المروحة، وقال همسا: كم من حيلة يأخذ القرار مني! كيف لمثلي أن يشارك في ساحة السباق، حيث يمسك كل زمام خيله، مستعدّا لكسب المال والسمعة الطيبة، وها أنا ذا لم أفرغ من إغلاق المروحة بعد!

دخل الحمام ليتوضأ دون أن يعطي الجوال حقه في مراجعة مواقع التواصل الاجتماعي أوفتح الواتساب ليرى ما الجديد، فاليوم لم يقم بجولة إلكترونية في عالمه الافتراضي عبر جواله: يضحك مرة، ويبكي في أخرى، ويسبّ الظالم ويلعنه في تلوها، وفي أخرى تقع عيناه على منظر فاحش فيردّد كلمات الاستغفار والحوقلة، وفي الأخرى يقلد قراءة القارئ، وفي التي تليها يهزّ رأسه طربًا مع الغناء، غير أنّ الجوال ظَل في موضعه على الشحن، كأنّ الوليد الحديث قد تعب من امتصاص اللبن من ثدي أمه، ويرى إلى أبيه ليأخذه معه.... قام داخل الحمام أمام صنبورين من الماء: ينزل من الواحد الماء الحار، ومن الآخر البارد، ففكّر لحظة في أيهما يفتح لئلا يقشعر جلده بكثرة البرودة ولا يذوب جلده بكثرة الحرارة، ولكن قبل أن يفتح، وضع تحتهما طبقا ليجمع فيه الماء المنصب من كلا الصنبورين، ففتح البارد أولا، فالحار، وكان الحار قد انصب أكثر، فلما دس يده في الماء... لعن الطبق والماء كليهما... وأخيرا، توضأ وصلّى.

---

* باحث بقسم اللغة العربية بجامعة كشمير

خرج ليشتري الخبز, فلما وصل إلى الدكان تذّكر أنه نسي النقود في الغرفة, فعاد غاضبا يسبّ النقود وصاحبها... فتح باب الغرفة بعنف, يبحث عن محفظته, وهو يهمس في نفسه: أين غابت... لماذا تغيب دائما وقت الاحتياج؟ وأخيرا أتى بالخبز, فتذكّر أن الغاز قد نفد منذ البارحة, فجلس على التراب كملكٍ هُزم في ميدانه, واستعد للخروج دون تناول الفطور. جاءت بعد ذلك نوبة اختيار الملابس المناسبة للخارج, فوقع بين ما يحبه هو, وما تحبه من يحبها, ولكنه هذه المرة نجح في التوفيق بين ما هو المفضّل لدى محبوبته وما هو لديه, ومحبوبته غير مطلعة على حبه لها... سُرّ بأنه جمع بين هذين الثوبين كأنه جمع بين القلبين, ونسي بأنه لم يأكل الفطور, وخرج إلى المعهد مع بسمة عجيبة يظهر منها التعب...

وصل إلى الشارع, وكان جانبه الذي يسير فيه ملوَّثًا بالقذارة والمستنقعات, فأراد أن يعبر إلى الجهة الأخرى ليمشي في طريقٍ أنظف, ولكن أبواق السيارات المسرعة روّعته, فخاف ألا يصطدم مع السيارة ويصل إلى المعهد في الهواء ميتا, ففضّل حياته على ثيابه, واتخذ الجانب القذر, يصون ثيابه من قطيرات المستنقعات التي تنثرها السيارات على ثياب المارّة والجدران, وعندما وصل إلى بوّابة المعهد شعر بنجاح آخر, وعبّر عنه ببسمة أخرى تطيل قوس فمه من جهة اليمين, وأخذ يعبر الشارع ولمّا وصل إلى الجانب الآخر مرّت سيارة مسرعة ولصق على قميصه وحل غليظ, فتجمد لحظة, ولم ير من نفسه أي حيلة إلا أن يلعن صاحب السيارة... وقبل أن يدخل المعهد دخل الحمام, وأزال بعض الوحل عن قميصه, ولكن الآثار لم تزل...

مشى داخل المعهد إلى قسمه بشعور الهزيمة, ولم تأخذ السافرات والمتحجبات من الفتيات في طريقه انتباهه ولو مرة... وصل إلى المعهد, ودخل مكتبته ليلبث بضع ساعات هناك دارسا, ولكن كلما بدأ النظر إلى كتابه, غُشِّي عليه, وبدت الكلمات تتشابك أمام عينيه, وقد مرت منها كلمات: طنطن, وصفع, وفرقع, وفقاعة... فرآها كأن الأولى تطنطن كالبعوضة, والثانية تقوم لتصفع البعوضة فتفشل, فتعود وتفرقع

لتصفعها مرة أخرى, والأخيرة تنفجر كمعناها, ثم تظهر مرة أخرى لتنفجر من جديد, لأن ضغط دمه كان قد انخفض لعدم تناوله الفطور منذ أيام... زار طبيب المعهد, لكنه لم يصرّح بكل ما كان يشعر به, بعد أن ردده في نفسه مرّات, أعطاه الطبيب قرصا ليضعه تحت لسانه, ولكن قبل أن يضعه تحته, قال في نفسه: إنه لم يسمع مني القصة كاملة... وماذا لو أساء فهمي؟... وهو لا يبدو طبيبا حقيقيا... في حين قال له الطبيب: كُلْه بالسرعة... ستشعر بالراحة... اضطر إلى أكله بأمر منه, فأكله وخرج إلى قسمه...

دخل القسم مرة أخرى, وقد انتابه الوجوم, وحضر الفصل مع بقية الطلاب, وقعد على مقعد متوسط بين الطلاب منكمشا ومنقبضا, يخاف من أن يقع نظر المدرس عليه, ولكنه لم ينج من نظرته, فأقامه وسأله سؤالا طريفا أسكت الكل, ولم يعرف أحد الجواب - حتى المدرس نفسه - فأخذ برهة قبل أن يجيب, يفكر فيه, يستجمع الكلمات, يحث نفسه على الإفصاح, فوقع مرة أخرى بين الإفصاح وعدم الإفصاح, ولما فتح فاه ليجيب, أمره المدرّس بالجلوس, وما إن جلس, همس الإجابة في أذن شاب بجواره, فقام هذا الشاب مسرعا قائلا: سيدي المدرّس المشفق, أنا... أنا الذي يعرف الإجابة... أنا, فأجابه بما سمع منه, ونال إعجاب المدرّس, وكان هو يخفي رأسه...

خرج الجميع من الفصل, والتفّ الطلاب حول ذلك الشاب الذي وحده استطاع الإجابة, يسترشدونه في التعلم, ولكن صاحبنا قد مضى في طريقه ذائبا في اللحظات... انتهت حصة أخيرة, وخرج الجميع وهو الآخر, ولما دنا من عتبة الباب, ظهرت أمامه تلك الفتاة التي لبس لها هذا الثوب, فغض بصره على الفور, ووضع يده على آثار الوحل على قميصه, وهو يخفيها, ويحاول أن يرفع بصره ليراها, ولكنه لم يستطع, فقالت له: جانبا... دعني أدخل, قد نسيت جوالي على المقعد... فانعقد لسانه, واحمرّ وجهه, وهو يريد الجواب, متنحيا عن عتبة الباب ليدعها تدخل...

أخذ طريق الغرفة بشعور الهزيمة كعادته كل يوم, ولكن اليوم امتزج شعوره بشعور آخر... شعور المقاومة... ولمّا دخل الغرفة, وضع حقيبته في موضعه, وخلع ما عليه من الثياب, وعلّقها على الجدار,

دخل الحمام ليغتسل، في حين كانت أطياف ما جرى معه تمرّ في ذهنه، فبدأ يهمس في نفسه: هل تستحق مني حقا هذه العناية... حلبة السباق للخيل، ولست خيلا مثلهم، إنما أنا متفرّج عليها... سيثمر جهدي إن أتقنتُ ما أحبّه... المروحة التافهة تسرق عقلي وتدفعني إلى منتهى الغضب... والجوال يجرني إلى عوالم من الوهم الملون... والنسيان ليس معضلة يعاني منها الجميع... والملابس، والثياب الفخمة تظهر أمامي كأن كلا منها تحتكم إلى الملك لاختياره في يوم ولايته... لماذا أتكلف هذا العناء القاتل بأن أظن أن كل ما أفعله وأقوله يجب أن يتجرد من الأخطاء والزّلل... لست إلها -أستغفر الله- حتى آتي بكلام مثل القرآن، وأفعل شيئا فأبلغ الكمال... المستحيل لا يراد بل يُتكيف معه، فلا بأس لو أخطأت القول، أو قصّرتُ في الفعل... لا بأس... حياتك حياتك...

ولمّا كان الغد، فتح عينيه عند الفجر بطاقة جديدة، وشعور دافئٍ يشيع في نفسه الطمأنينة، ونظر إلى المروحة وهي في دورانها المستمر تثير نفس الصوت مع كل دورتها، فرمى باللحاف إلى جانب الغرفة، وبدأ يتناغم مع صوت المروحة ويرقص عليه، متجها نحوها ليغلقها،. ثم دخل الحمام ونظر إلى الصنبورين، كما ينظر الطفل إلى ألاعيبه الجديدة، فوضع يده اليمنى على الصنبور الأيمن، ويسراه على الصنبور الأيسر، وفتحهما في نفس الوقت، وكان الماء المناسب في الطبق متوسط الحرارة، فتوضّأ وصلّى في هدوء دون عجلة... خرج لشراء الخبز بعد أن تأكد من وجود النقود في الجيب، فأتى بالخبز وصنع الشاي في الإبريق الإلكتروني، وما إن فرغ من الشاي أسقط جميع الثياب من العالق إلا بنطالا واحدا وقميصا واحدا، وأدخلها في كيس... ثم ارتدى هذا البنطال والقميص، وأخيرا وجد جواله ملقى في إحدى زاوية الغرفة، فقال في نفسه: نسيتك اليوم أيها الشيطان الصغير الذي ينسيني كل شيء...

خرج إلى المعهد متخذا نفس الطريق القذر، ولما عبر ذلك المستنفع سالما، وجّه رأسه إلى الوراء، ونظر إلى المستنقع، فطوى كُمّي قميصه وأخذ بيده عودا، وعاد إلى المستنقع فجعل منه قناة صغيرة توصل ماءه إلى البالوعة المتصلة بالشارع...

وصل إلى المعهد ويسّلم على كل من يعرفه مع ابتسامة لامعة, وقد سأله بعضهم عن سبب فرحه, ولكنه لم يعتن بالإجابة, بل ردد على كل منهم: أسأل الله لكم الأمثل والأحسن, وقال في نفسه كعادته: الناس لا يرون فيك مظاهر الكآبة, ومرارة عيشك, إنما يرون مظاهر النعم والخير, ويفتشون عن أسبابها...

دخل الفصل وجلس على المقعد مسترخيا, وهو لا يضيق بحضور الآخرين, والمدرّس يلقي الدرس, ولكنه لم يكتف بمجرد السماع, بل أشار إلى أخطائه حتى طرح المدرس إليه الأسئلة الصعبة, فأجاب أكثرها, وأجاب لبعضها بكل صراحة: لا أعرف يا سيدي, سيكون من جميل صنيعك لو أفدتني - بارك الله في علمك- بالجواب... اقتنع المدرس بسلوكه رغم أنه لم يحاول إقناعه... انتهى الدرس, وقال له ذلك الشاب الذي سرق منه الجواب بالأمس: أنت تجادل المدرّس... وأنت لا شأن لك أن تخاطبه هكذا... تزعج الآخرين بإشاراتك التافهة, فأجابه دون أي نوع من العناد: لا يا أخي, إنه من حقي أن أراجع معلوماتي, وأصحح الأخطاء حيثما وُجدت, وهذا لا يسمّى جدالا بل نقاشا علميا, ولا أزعج الآخرين, بل حاولت أن تصلهم معلومات صافية...

وفجأة رآى عشيقته, فاختلس النظر إليها من حين لآخر, وهي تنظر إلى السبورة, ثم تفرّس في وجهها لبرهة يسيرة لأول مرة إلى أن عاد إلى دنيا نفسه محدثا إياها: ما كل ما يتمنى المرء يدركه- تجري الرياح بما لا تشتهي السفن... اليوم لم يتغير العالم, إنما تغيّر هو, فصار كل شيء أيسر له.

.... ***** ....